



المغامرون الأربعة في بلاد السلطان

تأليف
عزة مختار







الإهداء

..... إلى أُمِّي

التي أطعمتني خبراً من حروف
فتعلمت كيف أنظم من تلك الحروف حكايات
حفظها الله وجعله في ميزان حسناتها



زياد المغامر الواعد

لم يكن زياد فتًى عادياً، على الرغم من صغر سنه، إلا أننا لا يجوز أن نذكره مع الأطفال أقرانه؛ لأنه يسبق سنه كثيراً، كثرة القراءة والاطلاع وحفظه القرآن وهو صغير أعطاه سناً فوق سنه، وخبرة تمتد سنوات ليكون جديراً بأن يكون شاباً صغيراً يجلس مع الكبار، ويحاورهم ويحرص علي التعلم من كل صغيرة وكبيرة تمر أمامه، ليس معني ذلك أنه يقلد دون وعي، وإنما هو كثير الحوار، كثير الأسئلة، كثير المناقشة والمراجعة.

زياد هو الأخ الأكبر لدارين أخته الصغيرة، هو طالب في الصف الثاني الإعدادي، انتهى من حفظ ثلثي القرآن، وقرر أن يجتهد في إجازة نهاية العام ليتم حفظه قبل التحاقه بالصف الثالث الإعدادي، يتسم زياد بالطول الفاره وخفة الحركة واسمرار بشرته، وقوة بدنه لحفاظه علي ممارسة الرياضة والتمارين الرياضية، يجتهد في دروسه؛ فصار محبوباً بين معلميه، علاوة علي حسن أخلاقه التي تجعله مميزاً في صفه، ومع كثرة قراءته واطلاعه إلا أن زياداً لم يحدد بعد أي اتجاه سيتخذ في مساره التعليمي، فتفوقه في الرياضيات والعلوم يدفع والده أن يحثه علي أن يكون طبيباً أو مهندساً، وقراءاته الكثيرة في علوم الجغرافيا والتاريخ والمغامرات والفتوحات، تجعله هو شخصياً يفضل ذلك المجال للتخصص فيه، وهكذا كانت تتجاذبه أكثر من رؤية معرفية للسیر صوبها.

كانت والدته التي درست التاريخ قبلاً لها الدور الأساسي لتنشئة زياد علي تلك المعارف، فقد كان طفلاً صغيراً ينام علي قصص الفتوحات الإسلامية، وتاريخ الصحابة، وبطولات شباب الفاتحين، وأخلاق المسلمين حين كانت لهم دولة مترامية الأطراف تمتد من أوروبا لآسيا لأفريقيا، كانت تصف له

جغرافيا العالم علي الخريطة قبل أن يتعلمها بالمدرسة، فصار يجيد قراءة أي خريطة، ويعرف مفاتيحها ومقاييسها وأبعادها دون الحاجة لشرح أحدهم، أما والده الذي كان يعمل بالتجارة في شركة متوسطة بالشراكة مع زوج خالة زياد، مما يضطره للسفر كثيرًا طول العام لإبرام صفقات تجارية من معظم بلاد أوروبا وآسيا، فقد ترك أمور التربية لزوجته وهو يعلم جيدًا أن حبها للدين وتربيتها علي الالتزام سوف تجعل أبنائه خير الأبناء؛ ببذلها كل طاقتها في تلقينهم وتوكلها على الله في النتائج، فترك لها الأمر وهو مطمئن.

وكان زياد بالفعل عند حسن ظن والده به، فقد كان مطيعًا لوالدته، محافظًا علي صلاته بالمسجد ما استطاع، فإن فاتته فريضة أسرع وأداها بالبيت ولا يترك صلاته أبدًا.

أما أخته دارين التي تصغره بعامين، فعلى رغم حبها للقراءة، إلا أنها كانت تميل أكثر للفن والرسم والتلوين، كانت بارعة وفنانة بطبيعتها، كل كراساتها مليئة بالزهور والوجوه الجميلة التي لا تكف عن رسمها ليل نهار، حتى في الحصة الدراسية لا تكف عن ذلك رغم مطالبة المعلمات لها بالانتباه، جدران غرفتها معلق عليها أهم رسوماتها التي تحبها وتلاقي عليها استحسان المقربين منها، دارين كانت هادئة جدًا، يحبها كل من تقع عينه عليها لحنانها الغريب وصوتها الناعم الهادئ، وبشرتها الصافية وعينيها شديدي السواد وصوتها حين يترنم بالقرآن، فتاة بريئة وجميلة وشديدة الذكاء.

اهتمت بهما والدتهما منذ الصغر وقد تفرغت لهما تمامًا، ولأنهما كانا قرييين جدًا من خالتهما ويحبانها مثل والدتهما، وأيضًا قرييين في السكن، فكانوا يتزاورون كثيرًا، دارين أكثر مجالستها ليوسف الذي رغم صغر سنه، إلا أنه كان مثلها يحب الرسم والتلوين، معظم الوقت الذي يقضونه عند

خالتهم كان يوسف يلزم دارين، يري كيف ترسم؟ ويركز علي المنحنيات والخطوط والتفاصيل الصغيرة، ثم اختيارها للألوان ليكون أول من يصفق لها حين تنتهي من الرسم، ليختطف منها الورقة ويمكث علي تقليدها.

في هذا اليوم كان والدهما سيقدر متى يسافر ليحدد كل منهما الهدية التي يردها منه في رجوعه؟ لكن والدهما وعدهما بهدية أكبر مما يتخيلون، علي أن يعرفا المفاجأة في زيارتهما لخالتهم ليلاً.



رودينا الذكية

فتاة ذكية لامحة، في الصف الثالث الابتدائي، عندها تسع سنوات، لا تترك شيئاً لا تفهمه إلا وتسأل عنه، وتلح في السؤال حتى تعرفه تماماً.

هي الأخت الكبرى لشقيقها الوحيد يوسف الذي لا تكف عن الشجار معه كلما اجتمعا في مكان واحد، بسبب ما يقوم به من أعمال تضايقها، مثل الكتابة علي جدران غرفتها، أو اللعب بالكتب والقصص التي تحبها وتحفظ بها في مكتبة بغرفتها بجوار سريرها، وهي تقضي فيها الوقت بالساعات المتواصلة لا يخرجها من غرفتها، إلا أن تتناول طعامها بعد إلحاح من والديها، أو في أوقات الصلاة التي لا تضيعها أبداً.

أما يوسف الذي كان يقضي الوقت لعباً علي هاتف والدته

فهو في الصف الأول الابتدائي، ورغم أنه يحافظ علي الصلاة في وقتها، إلا أنه كان طفلاً مشاغباً، يحب اللعب كثيراً، ولا يهدأ في مكان واحد، يلقي بكل شيء من حوله على الأرض ولا يراعي تعب والدته التي لا تكف عن العمل ليل نهار في محاولة تعليمه، وتنبيهه علي الدوام أن الله يحب المسلم النظيف، وصاحب الصوت المنخفض، لكن يوسف الذي لم يكن يحب القراءة كثيراً، كان ينتبه مرة، ثم يعود وينسي ويفعل نفس الأخطاء طيلة الوقت.

كانت رودي التي لا تكف عن البحث والاطلاع، تتلهف علي كتاب يشتريه لها والدها الذي يشجعها دوماً علي القراءة، ويناقشها فيما تقرأ، ويجب عن أسئلتها المتنوعة في كل المجالات، ويساعدها كذلك علي اختيار الكتب التي تتناسب مع ميولها في البحث والمعرفة، والتي لا تتوقف علي معرفة

قصص التاريخ والروايات، بل كانت تبحث في جغرافيا الدول، ومواقعها وطبيعتها وأشهر مدنها، وعادات وتقاليدها، ولغتها، ودينها. كانت تتنافس مع أبناء خالتها في القراءة واقتناء الكتب وتتبادل معهم المعلومات والكتب التي لا توجد عند أحدهم.

كثيراً ما تخيلت نفسها علي متن طائرة أو قطار يسافر عبر الزمن، فيسافر للماضي البعيد حيث السكان البدائيين لتعيش مثلما عاش الإنسان البدائي الذي كان يسافر علي ظهور الخيول، ويطارد حيوانات الغابة ليأكل لحومها ويصنع من جلودها ملابس، وتصنع بنفسها اللحوم المشوية علي جذوع الأشجار وتأكل بيديها، حيث إنه لا توجد أدوات طبخ أو ملاعق أو سكاكين، ثم تري نفسها وكأنها تقفز علي شجرة عالية تراقب الحيوانات والطيور الجارحة من بعيد.

وكم من مرات سافرت فيها إلى بلاد الإسكيمو في أقصى شمال الكرة الأرضية حيث الجليد الذي لا يذوب! وحيث يضطر سكانها لارتداء الملابس الشتوية الثقيلة طوال العام ليظهروا بمظهر الدب القطبي علي الدوام، وقامت بمغامرة مع الأسماك في قاع بحيرة جليدية تحاول البحث معها عن مخرج لها لتري بعض ضوء الشمس، كما أنها سافرت لأدغال أفريقيا لتتعرف علي غاباتها السوداء بأسرارها العجيبة وأرضها الخصبة الرائعة، وحيواناتها النادرة، وشعوبها البسيطة.

لم تكن رودينا تكف عن السفر في خيالها مع كل كتاب تطلع عليه، لتعود من رحلة القراءة فيه بمعلومات ومغامرات وكم من الأسئلة تعدها لوالديها وتنتظر الجواب بشغف، كما ينتظر والدها أسئلتها بحب وتشجيع. ولذلك كانت رودينا فتاة محبوبة في أسرته وبين زميلاتها في الفصل والمدرسة، وبين معلمها الذين كانوا يرون فيها باحثة صغيرة نبهة في

كل المواد الدراسية، وكانت دائمة الزيارة للمكتبة حتى أنها حصلت علي لقب «صديقة المكتبة» في مدرستها، ليس معني هذا أنها كانت كسولة، بل كانت نشيطة كثيرة الحركة، تمارس الرياضة، وفي مسابقات الجري في مدرستها كانت تحصل علي المرتبة الأولى، فنالت بذلك حب وتقدير الجميع من حولها.



يوسف الفنان الصغير

كما مر بنا يوسف الأخ الأصغر لرودينا، وكان أكثر ما يزعجها منه هو خطوطه ورسوماته علي جدران غرفتها، بعدما اضطر والده لأكثر من مرة أن يعيد طلاء جدران البيت بسبب ما يفعله، والحقيقة أنه لم يكن أحد يفهم هذا الطفل الصغير المحب للرسم بطريقة عجيبة سوي دارين ابنة خالته، كان يوسف فناناً موهوباً، كان يحاول الاستيلاء علي روايات وكتب أخته الخاصة بمغامرات الفاتحين والمغامرين، ليس همه القراءة ولا المعرفة، وإنما كان كل ما يهمه أن يشاهد الصور المختلفة ويقوم بتقليدها، لا يهتم أين ينقل الصورة؟، ولا يهمه ما يفسده في البيت بسبب رغبته في الرسم وتقليد المشاهد التي يحتفظ بها في ذاكرته؟ يرسم علي أبواب الغرف، أو قطع الأثاث، وبالطبع كان يقوم بذلك في كتب رودينا، حتى أنها كانت تحاول جاهدة في القراءة مرة أخرى فلا تستطيع بسبب أن الألوان الداكنة تغطي علي الحروف فتفسد المعني وتعجز عن الفهم.

واليوم قد بدأت فترة الإجازة الصيفية، ورغم حصول رودينا ويوسف علي أعلي التقديرات إلا أن الشجار قد بدأ بينهما منذ صباح اليوم الأول في الإجازة الصيفية، فقد بدأ اليوم مبكراً كما اعتادا الاستيقاظ كل يوم، أدي كل منهما صلاته مع والدتهم خلف والدهم، ثم تناولوا الإفطار في حالة من الصخب، كلاهما يطلب من والده هدية النجاح بعد أن طلب منهما أن يختارها كيفما شاءا، طلب يوسف من والده أكبر علبة ألوان بالمكتبات، كي يستطيع أن يرسم بها ما يشاء ويعوض فترة الدراسة، لكن رودينا التي كان يناديها الجميع رودي، صرخت قائلة :

لا يا أبي، يوسف لن يكف عن الرسم على الجدران والأبواب، ولن نستطيع

أن نمنعه طالما حضرته لن تكون بالبيت

لا يا أبي، أعدك أنني لن أرسم عليها، اشترؤوا لي أوراقًا تكفيني وأنا لن أرسم عليها، لكنني لا أريد هدية سوي الألوان، لن أقبل بغيرها، كان هذا هو يوسف الذي بكى فاحتضنه والده ووعده بأن يشتري له الألوان شرط ألا يستخدمها في غير موضعها،

وهنا انتبهت الأم لأمر لم تكن تنتبه له من قبل، وهو حب يوسف للرسم وكأنه يهواه أكثر من أي شيء آخر، بل وحين نظرت في رسوماته أدركت أنها أمام موهبة فنية حقيقية، فيوسف لم يكن يكتفي بمجرد نقل الصور، وإتقانها كما هي، دون إخلال، وإنما اكتشفت براعته في الإبداع الحر، فقد كان يرسم من خياله صورًا طبيعية بإضافات وأبعاد متناسقة، لكنها تعبر عن عوالم في خياله هو، وكأنه لا يرسم من وحي رؤية عينه، وإنما من وحي عالم بداخله هو، يتخيله فيبدع في تصويره، فعرفت من هنا أن موهبة ابنها الصغير موهبة حقيقية، تستحق المتابعة والتنمية والاهتمام من الجميع، ولأن رودي كانت تحب أخاها حقًا وما يضايقها منه يمكن السيطرة عليه، فقد سمعت لنصائح أمها باحتوائه، ومساعدته في تنمية قدراته وموهبته، وشغل وقت فراغه فيما ينفعه،

فرح يوسف بتغير معاملة الجميع له، خاصة أخته التي يحبها والقريبة منه، واصطحبته معها في غرفتها، بل وطلبت منه أن يستخدم الألوان الجميلة التي اشتراها له والده في رسم بعض الشخصيات في الكتب التي تقرأها، ورسم بعض الأماكن بعد وصفها له، فكانت النتيجة رسومات فائقة الجمال من وحي خيال يوسف وإبداعه.



المفاجأة

وضعت رودي خطتها في فترة الإجازة الصيفية علي أساس أن تكتسب بعض المعارف الجغرافية والتاريخية عن بلاد المسلمين، خاصة أنها ستلتحق بالصف الرابع الابتدائي ولأول مرة ستدرس مادتي الجغرافيا والتاريخ، فوعدها والدتها أن تبسط لها الكتب الخاصة بجغرافيا الوطن العربي والإسلامي، وتاريخ تلك البلاد من بداية الفتح الإسلامي لها وحتى اليوم حسب قدرة رودينا علي الاستيعاب والتحصيل، واشترت الكتب اللازمة مع والدها والفرحة تملأ قلبها وتكاد تطير وهي تسير بجوار والدها، تحمل بين يديها كنوزًا من المعرفة، تأخذ درجات سلم المنزل ركضًا لتفاجئ أخاها بكم الصور والخرائط، بالكتب التي اقتنتها، فيشاركها يوسف فرحتها، ويعد أدواته ليصاحب أخته في غرفتها كلاهما يمارس هوايته المحببة.

علي مائدة العشاء تجتمع الأسرة بعد عودة الأب من عمله، وهو الحريص دائمًا -طالما كان في مصر- علي التواجد بين أبنائه قدر الاستطاعة خاصة في وجبتي الإفطار والعشاء، يتحدث مع أبنائه ويحكي لهم عن كل البلاد التي زارها عن المواقف المضحكة أو العجيبة، والمشاهد المتنوعة التي يلقاها في أسفاره، وكانت الأم والأبناء يتابعونه بشغف وحب، ولا

يقاطعه في حديثه سوي رودي التي تحب أن تعرف تفاصيل كل شيء، فتسأل والأب يجيب بينما يوسف يحاول منعها حتى لا تقطع حديث والده، غير أن الوالد يحتضنه مبتسمًا قائلاً له: اترك أختك تسأل ما تشاء، فمن حقها أن تعرف، ومن واجبي أن أجيب علي تساؤلاتها.

في تلك الليلة قبل العشاء وقت تناول الفاكهة قال لهم والدهم :

عندي لكم مفاجأة الليلة، سوف تسعدكم جميعاً.
مفاجأة؟ أي مفاجأة يا أبي؟ أخبرني الآن بالله عليك،
وكيف تكون مفاجأة يا يوسف إن أخبرتك الآن؟
أخبرنا يا أبي، أعلم أن جميع مفاجآتك رائعة، فما هي أخبرنا الآن؟
اصبري يا رودي، سأخبركم بها بشرط.
ما هو يا أبي (قالها يوسف وهو يدق بقدميه الأرض اعتراضاً علي
الشرط الذي سيضعه والده مسبقاً لمعرفة المفاجأة)؟
الشرط يا حبيبي أن تأكلا الفاكهة كاملة قبل تناول العشاء، ثم تشربا
الحليب الدافئ، ثم أخبركما بها.
لا يا أبي، هذا ظلم، حضرتك تعلم أنني لا أحب الحليب، سأكتفي بالفاكهة.
لا يا رودي هذا شرط.
ضحك يوسف ضحكات عالية وهو يصفق بيديه ثم يشير لأخته قائلاً،
طفلة صغيرة لا تحب الحليب، دعها يا أبي وأخبرني أنا فأنا أحبه.
اغتاظت رودي من تصرفات أخيها قائلة بوجه غاضب : لا يا أبي أخبرني
أنا فهو لن يتناول الفاكهة، لا يحبها، بل هو الطفل الذي لا يفهم ولا يدرك
احتياجاته.
لا يا يوسف أنت وأختك لا بد من تنفيذ الشرط مكتملاً.
كانت الأم تتابع الحديث من بعيد وهي تبتسم غير مصدقة أن أبناءها قد
يخضعون للضغط ويأكلون الفاكهة، ثم يشربون الحليب رغبة منهم في
معرفة مفاجأة والدهم.
في الوقت الذي كانت تسأل فيه رودينا والدها :

لماذا يا أبي تصر يوميًا أن نأكل الفاكهة قبل العشاء؟ لماذا لا تكون بعده؟ ولماذا الحليب كل يوم؟

سؤال جميل منك يا حبيبتي، والأجمل أن أجيبك بينما نتناولها معًا، أما بالنسبة للفاكهة يا رودي، لماذا نأكلها قبل الطعام؟ فلأن فائدتها الكاملة في أن نتناولها على معدة فارغة من الطعام، بمعنى آخر، يجب أن تكوني جائعة قبل تناول الفاكهة، لأنك إن تناولتها بعد الطعام فلن تصل فائدتها لجسمك، بل وقد تكون ضارة وتحدث لك بعض العفونة ونحتاج للذهاب للطبيب،

نعم يا أبي لقد قرأت ذات مرة أن الفاكهة يجب أن تكون قبل اللحوم، وبقية أنواع الطعام حتى نستفيد منها، لكن لا أذكر أين قرأتها؟

تأملي يا رودي قول الله -تعالى- «وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون»، بدأ الله -عز وجل- بالفاكهة حين أراد أن يصف طعام أهل الجنة، وهذا هو الترتيب الصحي بالفعل.

صدق الله العظيم.

نعم يا أبي، فلم الفاكهة إذن؟ أليست الحلويات تكون أجمل؟

لا يا يوسف، الفاكهة صناعة ربانية، خلقها الله لتكون غذاءً للإنسان ينفع ولا يضر، فهي تحتوي على السكريات والفيتامينات والألياف، وكل نوع يحتوي على نوع مختلف من تلك الفيتامينات التي تقي الإنسان من الأمراض، وتساعد على النمو بشكل سليم، أما الحلويات يا يوسف، فهي سكريات معقدة، ونشويات وزيوت ضارة، تضر بالأسنان، والمعدة وتؤدي للسمنة المفرطة التي تجلب الأمراض وتؤدي للكسل والخمول.

اضطر الأبناء لتنفيذ شرط أبيهم بعد شرحه المفصل عن فوائد ترتيب الطعام وتناوله بكميات قليلة ومضغه جيدًا حتى تتم الاستفادة منه، بعد العشاء ذهب كل منهم لغسل أسنانه عائدًا بأقصى سرعة ليعرف المفاجأة التي وعدهم والدهم بها.

رحلة في ظلام الليل

كانت كلمات والدهم كفيّلة بأن يقفز الاثنان طرباً؛ صارخين من الفرحة التي لم يصدقوها، بينما ضحكة الأبوين من رد فعل الصغار تكاد تصل للجيران.

قال لهم والدهم انتظروا دقائق وسترون، من سيزورنا الآن؟

من يا أبي؟ من الذي سيزورنا؟

كان هذا صوت يوسف ليسمع جرس الباب ثم يجري مهرولاً تجاهه ليفتحه، فإذا بزياد ودارين يتسابقان لحضن خالتهما، بينما يوسف يهتف طرباً لتلك الزيارة، كي يخبر أبناء خالته أن أباه أعد مفاجأة لهم، رغم أنه لا يعرف تلك المفاجأة حتى الآن، إلا أنه يتوقع أن تكون هدية ضخمة، اجتمعت الأسرة الكبيرة، يتضحكون من ردود فعل الأطفال حين اجتمعوا، وحين كانوا يلحون في معرفة المفاجأة الكبرى، كانت السعادة الغامرة تملأ المكان.

ولم لا وقد قرر الأب أن يصطحب أسرته وأسرّة شريكه في رحلتهما التالية إلى تركيا، والتي قد تطول لشهرين وأكثر هذه المرة، نظراً لحجم التبادل التجاري الكبير الذي سيقوم به، مما سيضطره للتجوال على مصانع مختلفة وقد يضطر للسفر لأكثر من مكان داخل الأراضي التركية.

بعد التعبير عن سعادة الجميع بالمفاجأة غير المتوقعة انفرد الأبوان بغرفة المكتب لمناقشة الأمور الخاصة بالعمل، ودخلت الأختان لغرفة الاستقبال ليتحدثا معاً، ويرتبان ما يمكن ترتيبه للإعداد للرحلة، بينما انضم الأطفال لبعضهم البعض بغرفة رودي التي فتحت جهاز الكمبيوتر

الخاص بها ليسبقها زياد على مؤشر البحث وهو يعلم جيدًا، علام تبحث ابنة خالته؟ مر الوقت والكل مشغول في أمر يهمه إلى أن حان وقت انتهاء الزيارة وتوصيلهم حتى الباب الخارجي.

طلبت الأم من أبنائها النوم مبكرًا حتى لا يعتادوا السهر في فترة الإجازة الصيفية، بدون جدال دخل الصغيران كل منهم إلى غرفته.

بعد دقائق سمعت رودي نقرًا خافتًا على باب غرفتها وصوت أخيها يوسف يناديها :

رودي، أنا يوسف، هل أدخل؟

بصوت خفيض أجابت، ادخل يا يوسف.

تعجبت رودي من مجئ أخيها دون علم والديهما في وقت يستعد كلاهما للنوم.

ماذا بك يا يوسف؟ لماذا لم تنم؟

كيف أنام يا رودي؟ كلما حاولت النوم أتخيل الرحلة التي سنقوم بها، وما يمكن أن نراه من مشاهد جميلة يمكن أن أقوم برسمها، أتخيل الملابس التي سأرتديها هناك، وأتخيل الأصدقاء الذين يمكنني أن أحصل عليهم، وأتخيل الطائرة بينما تطير بين السحاب، هل يا تري لو شقت الطائرة السحاب يا رودي؟ هل يري الطيار أمامه؟ أو أنه يمكن أن يصطدم به؟ هل يمكنني لمس السحاب بيدي يا رودي؟

كانت أخته تنصت إليه وهي تبتسم من خياله الواسع وتساؤلاته البريئة في الوقت الذي فكرت فيه أن تجيب على تساؤلاته بطريقتها الخاصة.

أشارت إليه مبتسمة وقالت :

انتظر يا يوسف، سوف أجيبك على كل ما يشغلك.

وهل تعرفين جواب كل تساؤلاتي؟

لا بالطبع، فأنا لم أسافر لتلك البلاد من قبل، ولم أقرأ عنها في الحقيقة، ولا أعرف سوي بعض المعلومات البسيطة من خلال ما سمعته من والدتنا عن فتح القسطنطينية، لكن هناك طريقة نعرف بها كل شيء وليس جواب تساؤلاتك فقط.

كيف أيتها الفصيحة؟ نسأل من؟

نسأل جوجل، ألا تعرف أن جوجل يمكنه الجواب على كل سؤال نطرحه عليه؟

تقصدين جوجل على شبكة الإنترنت؟

نعم يا يوسف.

وكيف سيجيبنا؟ وكيف سنسأله في الأصل؟

ستري الآن، لقد سألته بالفعل أنا وزياد، والآن سأريك إلام توصلنا؟

خفض يوسف صوته أكثر قائلاً، لكنّ أبي وأمي إذا سمعانا فلن يسمحا لنا بالسهر، اخفضي صوت الكمبيوتر، والإضاءة ماذا سنفعل بها؟

أسرعت رودينا ووضعت جهاز اللاب توب تحت الغطاء، وتسالت هي وأخوها للاختباء أمامه حتى لا يري والدهما الضوء، أو يسمعا صوتاً؛ ليستطيعا معرفة ما يريدان من معلومات تفيدهما عن المكان اللذان سيقضيان فيه وقتهما معظم الإجازة الصيفية.

كان البيت هادئاً تماماً، والضوء بالخارج خافتاً، مما يوحى بنوم الوالدين، كان عليهما طرح السؤال الأول على محرك البحث بالجهاز، قال يوسف :

أسأليه عن الحقائق العامة والمتنزهات وأجمل المناطق.

لا يا يوسف بل يجب أن نبدأ بالخريطة العامة لتركيا، ثم ندرس خرائط المدن التي من المقرر أن نزورها، وما زلت أذكر بعض الأسماء التي ذكرها أبي أمامنا وهو يحدث والدتنا عن تفاصيل الرحلة.

وافق يوسف مضطراً لأن يبدأ بالخريطة التي لن يفهم رموزها ومفتاحها، واهية الخطوط المرسومة ولا يعرف إلام تشير أو ماذا تعني؟ معتمداً في الشرح على أخته التي تتحكم بالأمر

كله، بينما كل ما يشغله أشياء أخرى غير المعلومات التي تشغلها هي. بدأت رودي في البحث لتظهر عدة خرائط لدولة تركيا، بعضها باللغة العربية وبعضها بالإنجليزية أو اللغة التركية، بعضها يوضح البحار والمضايق التي تطل عليها ومنها، وبعضها يكتفي بذكر أسماء المدن.

أعادت رودي النظر في الخريطة مرات ومرات، يميناً ويساراً، ثم تسير بإصبعها على حدود الخريطة، تغلق عينيها وتفتحهما غير مصدقة فتظن أنها أخطأت في البحث، فتعيد قراءة اسم الدولة المكتوب بخط ظاهر ومظلل، فلا يمكن أن أخطيء في قراءته أعلي الخريطة (تركيا)، ثم تعيد قراءة أسماء المدن بالترتيب فتردد ما تعرفه منها من مدن مشهورة تاريخياً،

أنقرة، استانبول.

إذن الخريطة ليست مخطئة، ولكن كيف؟

كانت تهمس لنفسها بتساؤلاتها، وأخوها في حيرة لا يفهم لماذا أخته في تلك الحيرة؟ حتى قطع صمتها قائلاً :

ماذا بك يا رودي؟ هل هناك خطأ ما؟ لماذا لا تشرحي لي؟

انتظر يا يوسف، الخريطة لست أفهمها، كيف تكون تركيا في قارتين

في نفس الوقت؟

قارتين؟ ما معني قارتين؟

القارة يا يوسف هي أرض مرتفعة تشبه الجزيرة، لكنها ذات مساحات كبيرة تحوي مجموعة من الدول وهي تكون العالم اليابس.

وضحي لي يا رودي ببساطة بالرسم، ماذا تعنين باليابسة والأرض المرتفعة؟ اشرحي لي ببساطة كي أفهم.

انظر يا يوسف، الأرض عبارة عن كرة، كرة كبيرة جدًا

نعم أعرف هذه المعلومة.

تنقسم هذه الكرة ليابسة وماء، اليابسة هي الأرض التي نعيش عليها، والماء هو البحار والمحيطات والأنهار.

تمام؟

نعم.

نسبة الماء أكبر بكثير من اليابسة، تتشكل الأرض بنسبة ٧١٪ من الماء، ٢٩٪ من اليابسة، هذه النسبة من اليابسة هي ما نسميه القارات، كل قارة عبارة عن مجموعة من الدول

لكننا يا رودي نعيش في دولة مصر، فكيف تقولين إننا نعيش في قارة؟

يا حبيبي انتظر، كما قلت لك، القارة عبارة عن مجموعة من الدول، يعني مثلاً نحن نعيش في مصر، ومصر جزء من قارة أفريقيا، أقرب لك المعني يا يوسف.

أين نعيش نحن؟

في شقتنا.

وأين شقتنا؟

في العمارة؟

وأين العمارة يا يوسف؟

في الشارع.

والشارع في وسط المدينة، والمدينة اسمها القاهرة، والقاهرة في مصر،
أليس كذلك؟

نعم.

وحين يسألك أحد أين تعيش؟ يمكنك أن تقول في شقة رقم كذا عمارة
رقم كذا، في شارع كذا.

نعم.

نحن نعيش في مصر، في قارة أفريقيا، على نسبة ٢٩٪ من مساحة
اليابسة في العالم، فهمت يا يوسف؟

نعم فهمت، فما الذي يحيرك في الخريطة وأوقفك؟ هل تركيا لا تقع في
قارة؟

ضحكت رودي وهي تقول لا يا يوسف، بل تقع في قارتين، الخريطة
تقول إنها تقع في قارة آسيا وقارة أوروبا.

وهل ينفع؟ دولة تعيش في قارتين؟

نعم يا يوسف ينفع، مصر لها جزء في قارة آسيا، سيناء الحبيبة وهي
جزء مهم جداً من مصر.

سأفتح لك خريطة العالم لتفهم ماذا أقصد بالقارات؟

انظر يا يوسف هنا.



تلك خريطة توضح قارات العالم، وهي ست قارات كما تري،

اقرأها أنت بالترتيب:

١. آسيا.

٢. أوروبا.

٣. أمريكا الشمالية.

٤. أستراليا.

٥. أفريقيا.

٦. أمريكا الجنوبية.

والآن نفتح خريطة تركيا مرة أخرى لنري موقعها في قارات العالم.

انظر إلى الخريطة.

جزء في قارة آسيا يطل على الدول العربية والإسلامية.

وجزاء في قارة أوروبا يطل على دول أوروبية.

حقيقة أنا لست أفهم.



ولأول مرة أكتشف تلك المعلومة.

في هذه الأثناء نظر يوسف في الساعة وقد غلبه النعاس فلم يعد قادرًا على الاستيعاب أو فتح عينيه ليري وقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحًا.

رودي، سأذهب لأنام.

لم أعد قادرًا.

انتظر يا يوسف انتظر.

أتري ما أراه؟

أتري تلك السفن في مضيق البسفور؟

أين تلك السفن؟ لا أري شيئاً؟ أريد أن أنام.

يوسف لا تترك يدي، تمسك بي يا يوسف ستسقط في البحر، صرخت
رودي ويوسف في صوت واحد بينما تهوي بهما الريح بعيداً على ظهر
سفينة في عرض البحر، أنقذووووونا



في عرض البحر

تشبثت رودي بكلتا يديها في يد أخيها بأقصى قوتها حتى لا تفلته فيقع أحدهما بعيداً عن الآخر، بينما تتعالي صيحاتهما طالبين النجدة والإنقاذ وهما يطيران بين السحب السوداء، لا يكادان يريان شيئاً.

لا يكادان يذكران شيئاً مما كانا فيه، آخر ما تذكره أنها كادت تصل لحل الخريطة وتعرف كيف تقرؤها وتحدد الموقع بدقة، وأن أخاها غلبه النوم وكاد ينام بجوارها، ولم يعد قادراً على السير لغرفته، حتى حملتها الرياح لقلب الخريطة بصورة مفاجئة تكاد معها أن يتوقف قلبها، ورغم أنها قرأت الكثير من القصص والروايات إلا أنها كانت تدرك الفرق بين الحقيقة والخيال، وتعرف الفرق بين القصة التاريخية التي تستهويها، وقصص الخيال التي تملأ الأطفال رعباً، وبما أنها من القراء الجيدين، فهي تعلم أن ما هي وأخوها فيه الآن هو فوق الخيال، ولا يمكن أن يكون واقعاً، فها هي تسبح مع الريح يغطيها الظلام ولا تدري لأين؟ ولا يسمع صرختها أحد. فما الذي جذبها من داخل جهاز كمبيوتر؟ وما قوة هذه الرياح التي تحملهما؟ وإلى أين؟ ولم هما؟

تساؤلات كانت تدور في خيالها كالبرق الخاطف سريعة دون أن تجد جواباً لأحدها، كان يوسف من شدة الريح والخوف من الظلام يغمض عينيه ويحكم قبضة يده في يد أخته بينما تذهب بهما الرياح يمنة ويسرة حتى أنهما شعرا بها داخل عظامهما، رغم بداية الصيف والأجواء الحارة بالقاهرة. من بعيد لاحظت أنها تقترب من مياه بحر متلاطم تسمع صوته من بعيد، بينما تظهر من بعيد معالم السفن التي كانت واضحة على الخريطة

الأخيرة في تصفحها، تحملهما الريح وحين اقتربا من السفن الراسية في المضيق إذا بالريح تحملهما ببطء في الظلام إلا من ضوء خافت على ظهر السفن هنا وهناك،

الآن شعرا ببعض الهدوء فهدأ الصراخ، غير أن الخوف والعجب يتزايد في قلب كل منهما، استقاما وكأنهما يقفان على بساط ريح عجيب، ولم يترك أحدهما يد الآخر.

ينظران هنا وهناك؛ ليتأكدا من المشهد الذي يقترب، السفن تقف على مسافة من مضيق البسفور في عرض البحر، بينما تتوسط المضيق سلسلة ضخمة تحول بين دخول تلك السفن إليه وكأنها حارس قوي يحرس المدينة.

في ذات الوقت هناك حراك غريب بين الأشجار المحيطة بالشاطئ والتي تشبه الغابة من كثافتها، لكن الضوء الخافت للقمر يظهر حركة غير عادية لتلك الأشجار، تري هل بينها حيوانات مفترسة سوف تنقض عليهما بمجرد نزولهما إلى اليابسة؟، أو أنها مجموعات من الجنود سوف تقبض عليهما؟ لم تعد رودي قادرة على التخيل أو التفكير، تركت نفسها للريح تتحرك بها كيفما شاءت، كان كل ما يقلقها والدتها لو استيقظت ولم تجدها في فراشها هي وأخاها.

بالتأكيد ستغضب أو تقلق وستخبر والدهما، ولا تعرف كيف يكون رد فعله؟

تمنت في هذه اللحظة لو كانت تحلم وينتهي الأمر بيقظتها،
تمنت لو كانت تنام هانئة تنتظر الصباح لتذهب مع والدتها لإنهاء الأوراق اللازمة للسفر.

ليتها نامت مبكرة كما أمرها والداها!

ليتها لم تطلب من أخيها التصفح والبحث في الخرائط واكتفت بالنوم !
لكن الأمر حدث بالفعل انتهى وأصبح لزاماً عليها أن تواجه الحقيقة
وتتعامل معها هي وأخوها، وترعاه كي لا يصيبه مكروه، فهي الكبيرة
والقادرة على الاعتناء به حتى ينتهي ذلك الكابوس وتعود به للبيت.

فهل حقاً ستعود؟

هل ستستطيع الاعتناء به وسط ذلك الظلام والغربة والبحر والسفن،
وحركة لا تعرف من وراءها في الغابة المظلمة،

لم تعد تدري شيئاً سوي الانتظار؟

مر الوقت سريعاً، وحطت بهما الريح على ظهر إحدى تلك السفن، وجدت
بعض الرجال يحملون بعض الأشياء ينزلونها من فوق ظهر السفينة
ليتناولها منهم البعض الآخر أسفلها، بينما من بعيد يحملها آخرون إلى
اليابسة.

تحسست الطريق لتقترب منهم وهي خائفة وتطلب من أخيها الصمت
التام حتى لا يشعر بهم أحد.

اختفيا خلف بعض الحبال التي يبدو من حجمها أنها قوية جداً، وتستهلك
مساحة كبيرة، ثم من كومة حبال لكومة أخرى اقتربا من الرجال؛ ليسمعا
ما يقولونه وهما يكتمان أنفاسهما حتى لا يشعر بهما أحد.

همست لأخيها، يوسف، اقترب مني؛ لتستدفئ فالجو بارد جداً، هل
تسمع شيئاً؟

نعم يا رودي، هذا الرجل يقول شيئاً عن تخفيف أثقال السفينة ليخف
وزنها.

فهمت ذلك من كلامه، لكن أي سفينة تلك؟ ولمن؟ ولماذا؟

سننتظر هنا حتى الصباح يا ردوي، ربما يأتي والدنا للبحث عنا،
بالتأكيد سيفعل، أو نذهب نحن لربان تلك السفينة ونطلب منه أن يعيدنا
لبيتنا، ونشرح له أننا جئنا بطريق الخطأ ولم نقصد.

وهل سيصدقنا يا يوسف؟

ولم لا ؟ أليست هي الحقيقة؟

تعالى نقترب أكثر لنفهم ما يفعلون، ربما نعرف عنهم شيئاً، فإن كانوا
من الطيبين نطلب منهم المساعدة؟ وإن كانوا من القراصنة نختفي حتى
نطلب النجدة أو ينقذنا أحد.



مكتبة في جوف السفينة

حين اقتربا من سطح السفينة اتضحت بعض معالمها، سفينة هائلة لا يستطيع أحدهما أن يحتويها بمجرد نظرة أولية، كل الأشياء عليها تتسم بالضخامة، حتى تلك الحبال التي لا حظاها في البداية لم تكن كأبي حبال رآها أحدهما من قبل على حافة السفينة، تتراص مجموعات كبيرة من تلك الحبال المتراسة بشكل دائري فوقها فوق بعض، موضوعة بشكل هندسي مذهل، بجوارها تتراص أوانٍ تشبه البراميل الإسطوانية الكبيرة، معلقة بإحكام بحيث يصعب على الرائي أن يحدد ما بها أو حتى لونها الداكن، يبدو من ثباتها على ظهر السفينة أنها ثقيلة جدًا، فهي لا تهتز بحركة السفينة ولا تتأثر بارتطام الأشياء الصغيرة بها ولا تصدر صوتًا، مما يدل على أنها مليئة بشيء ما لا يعرفان ما هو؟

في مقدمة السفينة التي كانا قريبين منها حين أنزلهما بساط الريح الذي كان يحملهما، كان يوجد ما يشبه المنظار الكبير يوجه أحدهم يمنة ويسرة وكأنه يحدد هدفًا ما يحاول رؤيته جيدًا.

بخطوات وثيدة وبدون صوت يضعان قدمًا على ظهر السفينة ويرفعان قدمًا، كانت أقدامهما حافية، يرتديان ملابس النوم الخاصة بهما، ودون همس تقدمتا خطوات، كانت رودي باعتبارها الكبرى في المقدمة، بينما يزاحمها يوسف محاولاً حمايتها باعتباره الرجل، فرغم صغر سنه يري نفسه هو الرجل، وهو الجدير بحماية أخته.

اقتربا من منطقة وسط السفينة ولم يلحظ وجودهما أحد نظرًا لصغر حجمهما بجوار كل هذه الأشياء الضخمة حولهم، كان ظلهم الخافت في حجم القطة تقريبًا، ورغم تلاحق الأنفاس وسرعة دقات القلب، والخوف،

إلا أنهما كانا حذرين تمامًا، اختبأ تحت ظل جسم غريب، ضخم جدًا لم يستطيعا تبينه، إلا أن الظلام أسفله كان موحشًا، حين لمستة رودى بأناملها الصغيرة كان ملمسه باردًا جدًا، مصنوعًا من المعدن كالحديد، مغطّي من كل جوانبه بقماش سميك فلا يظهر له معالم، حاولت الابتعاد قليلًا لتحدد ما هذا البناء الذي يبدو أن بجواره كالنمل الذي لا يراه أحد.

سألها يوسف هامسًا، ما هذا يا رودى؟ هل هو بناء حديدي على سطح سفينة؟ انتظر يا يوسف، إنه، إنه يشبه المدفع الكبير، الكبير جدًا، أي مدفع هذا؟

أين حدوده وبدايته ونهايته؟

انظري يا رودى لارتفاعه، لا، ليس مدفعًا، إنه بناء ضخم لا يا يوسف، يبدو مدفعًا كبيرًا، انظر لأعلى، تلك الماسورة الكبيرة التي ترتفع لأعلى وكأنها مئذنة مائلة، هي جزء منه،

أثناء سيرهما حول هذا البناء الحديدي الضخم، لا تدري رودى كيف وجدت أخاها يتزحلق على السطح المبلل ليحدث جلبة شديدة باصطدامه ببعض الأدوات التي كان ينقلها البحارة، فانتبه إليه أحدهم وهو الأقرب، صاح الرجل رعبًا لما رآه وقد حسب أنه رأى أشباحًا، في نفس الوقت الذي صرخ فيها الولدان أيضًا من الخوف، والجميع كان يحاول جاهدًا رؤية تفاصيل ما حوله، مرت لحظات حتى يهدأ الجميع ويتراجع أحدهم عن الآخر بضع خطوات ليستوعب، كانت نظرات الرجل غريبة رغم ملامحه الطيبة، ورغم حجمه الضخم وسمرة وجهه الواضحة في ظلام الليل، نظراته كانت تحمل تعجبًا، ما الذي أتى بطفلين على ظهر سفينة حربية تقوم بمهمة صعبة في بحر مرمرة، وظلت راسية بالقرب من شاطئه عدة أشهر، كيف استطاعا الصعود إلى السفينة؟ من الذي أتى بهما هنا؟ ومتى؟

وكيف دون أن يراهما أحد؟ من المستحيل أن يكونا قد تسللا من الفراغ أو الهواء، تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكنهما بها الوجود في هذا المكان الآن.

هدأ الرجل واقترب منهما مرة أخرى :

- من أنتما؟ وما الذي أتى بكما إلى هنا؟ هل تتبعان أحد الضباط على المركب؟ أو أتى بكما الشيطان إلينا؟ أو أنكما من عيون العدو؟

كانت أسنان يوسف تصطك في بعضها البعض من الرعب، وجسده كله ينتفض ويتصبب عرقاً رغم برودة الجو، يحاول أن يتحدث إلا أن الكلمات لا تسعفه فتختلط الحروف من الخوف، ينظر لحجمه بجوار حجم الرجل ويتخيل، ماذا لو رفع هذا الرجل الضخم قدمه ووضعها علينا؟ بالتأكيد سيقتلنا في لحظة واحدة، حين صور له خياله ذلك المشهد وهو يري نفسه وأخته مبعثرين تحت أقدام الرجل، بدأت الدموع في الانهمار من عينيه، بينما أخته تضغط على يديه؛ لتهدئه وتقويه، قالت موجهة حديثها للرجل :

أنا رودينا، وهذا أخي يوسف، من مصر، لا ندري ما الذي أتى بنا هنا؟ كنا نقرأ في كتاب عن تركيا ونتصفح الصور الخاصة بها وخرائطها على اللاب توب، وفجأة حملتنا الريح ووضعتنا على ظهر هذه السفينة ولا نعلم كيف؟ كل ما نريده أن نعود لبيتنا حتى لا تقلق أمي وأبي علينا، فأخبرني حضرتك كيف نعود إلى البيت؟

ورغم خوف رودينا الشديد، إلا أنها حاولت أن تتماسك وتظهر قوة أمام أخيها كي تثبته وتطمئنه.

كان الرجل يتابعها في ذهول، لا يفهم كلمة مما تقوله ولا يصدق، يحسب أن رودي تعبث معه وتكذب حتى تخرج من المأزق الذي وضعت نفسها فيه هي وأخاها، أو تحمي الشخص الذي أرسلهما أو أتى بهما إلى هنا.

بدأ البحارة في التجمع حولهما، كل منهم يحاول الحديث معهما وطرح أسئلة حتى اختلطت الأصوات فما عادا يسمعان شيئاً، حتى شق ذلك التجمع صوت جهوري؛ ليأمر الجميع بالتراجع، ويأمر الطفلين بالتقدم لمقابلة قائد السفينة، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يقرر مصيرهما، على أن ذلك لن يكون قبل أن يفهم منهما كل شيء.

تقدم الطفلان أمامه برفق، كانت رودي تضم أياها بذراعها الضعيف حول كتفه، بينما الرجل يوجههما يميناً ويساراً حتى وجدا سلماً يؤدي إلى باطن السفينة، كان السلم شديد الظلمة؛ فلم يستطيعا رؤية درجاته، توقفوا لحظة غير قادرين على التقدم، فتقدمهما الرجل وأشعل شيئاً يشبه الشمعة الكبيرة، مثبتة في جدار السفينة يحيطها زجاج بلوري سميك مفتوح من أعلي كالقوّة، أضاءت المكان فظهر سلم عمودي لا يسمح إلا بنزول شخص واحد ثم يتبعه من خلفه، نزل الرجل الذي اضطر أن يحمل يوسف لأن خوفه منعه من النزول درجة واحدة، بينما تبعتهما رودي خلف الرجل مباشرة، وما زالت تتشبث بيد أخيها المعلقة خلف ظهر الرجل حتى لا يبيكي، انتهى السلم لممر طويل ضيق، تتراص على جانبيه أبواب مغلقة كأبواب حجرات سفينة الركاب التي يعرفونها، الظلام يمتد في الممر حتى نهايته، غير أن بعض الضوء المنبعث من أسفل أبواب الغرف يضيء على المكان بعض الإضاءة الخافتة.

يسير الرجل بالممر الطويل حتى يصل لغرفة تتصدر الممر في مواجهته وليست غرفة جانبية كباقي الغرف.

نقر الرجل الذي يرتدي ملابس تشبه ما يرتديه الجنود القدامى والتي شاهدها رودي في الأفلام القديمة من قبل، فكانت وكأنها تسير في فيلم قديم تقوم ببطلته غير مصدقة ما يحدث لها ولأخيها.

نقر الرجل برفق على الباب فجاءهم صوت من الداخل يسمح بالدخول.
فتح الباب ليجدا غرفة متسعة، منظمة ونظيفة جداً، على جانبها مكتبة صغيرة تحمل بعض الكتب، وعلي جانب آخر يوجد منظار أصغر من ذلك الذي شاهداه على السطح منذ قليل، كانت تدور عينها هنا وهناك عليها تفهم أين هي؟ ومع من؟ لكنها لم تر سوي صورة مشاهد تشبه ما تراه في كتب التاريخ القديمة.

يضع البحار العسكري يوسف على الأرض برفق، ويلقي التحية على الضابط الذي يبدو أنه قائد تلك السفينة، ويقص على قائده في كلمات معدودة قصة الطفلين، فيطلب منه القائد أن ينصرف ويتركهما له ليري ما حكايتهما؟

يغلق الباب برفق ويصبح الأخوان في مواجهة قائد السفينة لا يدريان أين هما؟ ولا كيف يخرجان من ذلك المأزق الكبير؟



مغامرة داخل الغابة المظلمة

رغم شعور رودينا بأنهما في محنة كبيرة، ورغم خوف يوسف الشديد والتصاقه بأخته ليلتمس الأمان لديها، إلا أن رودي تولد لديها إحساس مخالف حين التقت قائد السفينة الحربية خاصة حين اقترب منهما ومسح علي رأس يوسف ليطمئنه مبتسمًا قائلاً.

كيف حالك أيها البطل الصغير؟

نظر يوسف لأخته ولم يجب وكأنه يطلب منها أن تجيب بدلاً منه فأسرعت هي بالرد.

الحمد لله نحن بخير.

وكيف حالك أنت أيتها الكاتبة المبدعة؟

كان القائد يتحدث وهو مبتسم وعلي وجهه ملامح الطيبة رغم القوة البادية، يدور حولهما وكأنهما مركز دائرة وهما يتبعانه بالنظر حيثما دار، يسأل ثم يصمت وهو يتفحصهما حتى نطقت رودي قائلة :

من فضلك، نريد أن نعود إلى البيت، فنحن لسنا ندري كيف جئنا إلى هنا؟ ولا ندري أين نحن؟ وأبوانا سيقلقان علينا، ولا أريد لأمي أن تبكي خوفاً بسببنا.

ومن قال: إنكما محتجزان هنا، كل الأبواب مفتحة، تفضلا لو أحببتما الآن إلى سطح السفينة، وهناك اثنان من الجنود سوف يساعدانكما في الوصول لبيتكما، إن أحببتما الآن، وإن أحببتما أن تشاركا في صناعة التاريخ وفي أكبر عملية فتح فلكما ذلك،

نظرت رودى لأخيها يوسف نظرة تعجب وارتياح، فى ذات الوقت نظرة فيها تساؤل وتشجيع.

هل يعودان إلى البيت؟ وينعمان بسريرهما المريح؟ أو ينتظران قليلاً، ليرى ما لا يمكن مشاهدته.

بينما هما فى البيت ردت رودى فى صرامة :

لا، سننتظر ونشارك، فنحن لسنا خائفين

ولكن يا رودى فيم سنشارك؟ ووالدتك التى ستقلق، وأبى الذى سيغضب؟، أليس من الأولي أن نعود للبيت لنقرر من هناك؟

لا يا يوسف، تقرران هنا والآن، فإن عدتما فلا مجال لعودتكما مرة أخرى، ماذا قررتم؟

سنبقى، سنبقى هنا لبعض الوقت على أن نعود قبل الصباح

اتفقنا، والآن وجب عليكم الانصراف مع الجنود لتروا بنفسيكما ما يتم.

لكنى أريد أولاً معرفة ما يدور، ما هذه الخرائط؟ وأين نحن؟ وما تلك المهمة التى سنشارك فيها؟

اصبري يا رودينا، اصبري وستعرفين كل شيء فى حينه.

توجهت أنظار الثلاثة حين طرق الباب طرقة خافتة، ودخل ثلاثة من الرجال يبدو أنهم من الضباط المهمين نظراً لاختلاف ملابسهم عن ملابس الجنود الذين التقوا بهم على ظهر السفينة،

ألقي الضباط الثلاثة تحية الإسلام على قائدهم ورد عليهم السلام وبدا عليه الاهتمام لسماع ما لديهم من أخبار.

تنحت رودى وأخوها بعيداً حين رأيت القائد يجلب خرائط من مكتبته الموضوعة بعناية على الجدار الخشبي للسفينة، كانت الخريطة تحمل

رسومًا ما يشبه مضيّقًا متصلًا ببحر، لكنها لم تدرك أين هو؟ أو ماذا لعدم وجود بيانات مكتوبة على الخريطة؟ ليس إلا الرسوم المعبرة عن وجود بحر ما أو محيط ليست تدري على وجه الدقة، لكن القائد أزاح بعض الأشياء من على المنضدة التي تتوسط الغرفة الصغيرة، وفتح الخريطة بشكل كامل والتف الأربعة حولها قائلاً لهم :

أخبروني بآخر التطورات؟

الأمور كلها على ما يرام يا سيدي والخطة تسير وفق ما رتبنا لها كان هذا صوت الضابط الأول المجاور للقائد.

كان لا بد من التفكير في خطة عاجلة بعد هذه الشهور الطويلة التي حاصرنا فيها القسطنطينية، والحمد لله أن توصلنا لتلك الخطة الذكية يا سيدي، فكرة لا تخطر على بال العدو، لا يمكن أن يتصوروا أن سفننا يمكن أن تسير على اليابسة لندخلها لمنطقة القرن الذهبي، وتلافي تلك السلسلة الكبيرة التي تغلق المضيق، وتحول دون دخول سفننا إليه، وكان هذا هو صوت الضابط الثاني بينما كان يتحدث متحمسًا لفكرة قائده.

طمئنوني إذن، هل الطريق ملائم الآن لنقل السفن عليه؟

أجاب الضابط الثالث، نعم يا سيدي، فقد رتبنا الأخشاب على شكل قضيبين وهي غارقة الآن في الزيت، والليلة غير مقمرة، فهي مظلمة تماما وسنجر السفن على تلك القضبان الخشبية بالثيران الضخمة، ولن يستطيع أحد رؤيتنا نظرًا للظلام الشديد، وسنبداً على الفور يا سيدي.

علي بركة الله إذن.

كانت السفن تنتشر في بحر مرمرة على أبواب مضيق البسفور في انتظار الصعود إلى اليابسة ليلاً تجرها الثيران والعبور بها في الغابة الكثيفة إلى منطقة القرن الذهبي ؛ لتكون قريبة بما يكفي لفتح أبواب

المدينة واقتحامها مما ييسر عملية فتحها.

هكذا فهمت رودي ويوسف من الحوار الدائر بين الضباط الثلاثة وقائدهم.

استأذن الضباط في الانصراف، فأذن لهم القائد، بينما رودي تنظر إليه مستفهمة، إذا كانوا سينصرفون، فلم لا يذهبون معهم لمشاركتهم مهمتهم كما وعدهم القائد؟

فابتسم لها قائلاً :

دائماً متعجلة، اصبري يا رودينا فسنذهب معاً، أم تظنين أنني سأنتظر هنا وأرسل قادة جيشي وحدهم؟

كان الأخوان متحفزين في انتظار زهابهم للغابة ومتابعة الحدث العظيم الذي يتم دون توقع منهما أن يشاركا في عملية بهذه الأهمية، بينما كانا من ساعات قليلة على وشك النوم في سريريهما.



بالقرب من القائد كانا يسيران في خطوة عسكرية منتظمة، بينما يوسف يحاول تقليد خطوات القائد الذي لم يعرفا اسمه حتى الآن، حتى صعدا على سطح السفينة، بينما كان بالقرب منها

قوارب صغيرة تقل آلات حربية من السيوف والجنود لنقلهم إلى البر، بينما السفينة قد تم ربطها بحبال قوية، يبدو أنها مجموعة الحبال الضخمة التي رأوها حين هبطوا على السفينة منذ ساعات، هبطا على ظهر قارب صغير من تلك القوارب التي تحيط بالسفينة ليتحرك بهم نحو الشاطئ القريب، بينما الجميع لا يتكلم إلا هامساً وكأن هناك من يراقبهم، وصوت حركة القارب يشق مياه الخليج لا يسمعه أحد حتى وصلوا للشاطئ بسلام.

كانت الحركة كبيرة جداً، جنود يحملون آلات حربية، يتوجهون بها نحو غابة كثيفة من الأشجار الضخمة، لا تكاد تري شيئاً من تشابك أغصانها وكثرة الأشجار بها، فاجتمع ظلام الليل بظلام الغابة بينما يلتصق يوسف بأخته الخائفة والتي تقترب من القائد العظيم الذي يحييه الجنود والضباط بإجلال وتقدير، اقتربوا أكثر من مدخل الغابة ليظهر خطان كشريط السكة الحديد من خشب الأشجار، متراصان على هيئة قضبان، اقترب يوسف ليتأكد منه، فحذره أحد الجنود من الاقتراب أكثر حتى لا تلتصق ملابسه بالأخشاب المدهونة بالزيت، سار الأخوان بجوار القائد الذي كان يتفقد سير العمل بدقة ويلقي تعليماته والجميع يلبي وينفذ بسرعة ودقة، تقدما أكثر نحو الغابة لتغيب الرؤية تماماً وتظهر بعض ما يشبه المصابيح الخافتة، يرون على ضوءها عجباً، عشرات من الثيران المربوطة في حبال تشبه تلك التي رأوها من قبل، صفوف تعقبها صفوف ثنائية، تسير ببطء شديد، بينما يوجهها الجنود في اتجاه قضيب الخشب المثبت في أرض الغابة المظلمة، ليظهر خلف تلك الثيران كائن ضخم لا تظهر معالمه من شدة ارتفاعه وضخامته، يظهر ببطء من بعيد ليقترب ويقترب،

ومع اقترابه يزداد حجمه ويتضاعف فلا تكاد تري عيون الصغيرين نهايته
فيزداد خوفهما ويمسك أحدهما بيد الآخر، ينظران حولهما فلا يجدان
القائد بالقرب منهما، يبدو أنه سبقهما ليتابع عمله فاضطرا للبقاء مكانهما
وسط الجنود التي تحت الثيران على السير تجاه الغابة أكثر وأكثر.



المفاجأة الكبرى

لم يكن المشهد الغريب وحده هو الذي يدعو إلى بث الخوف والرعب في قلب الطفلين، وإنما كثرة عدد الجنود من حوله على الخيول المخبأة وجوهها ورؤوسها بأغطية غريبة، وكأنها ستخوض معركة تحارب مع المحاربين، كان بعض الجنود يحثون الثيران على السير لتتضح معالم الكائن الضخم، إنه سفينة لا يكاد يظهر ارتفاعها، ولا تكاد تعرف نهايتها سفينة؟ انظري يا رودينا، إنها سفينة.

نعم يا يوسف، سفينة من تلك السفن التي رأيناها في البحر منذ قليل. وماذا تفعل سفينة على الشاطئ؟ وفي هذا المكان في قلب الغابة؟ وإلى أين؟

لست أدري يا يوسف، إنه أمر غريب حقًا.

انظري من بعيد يا رودي، إنها ليست سفينة واحدة، تحاول رودينا أن تدقق النظر وسط الظلام لتتأكد من كلام يوسف، وبالفعل تري شيئًا قادمًا من بعيد تسبقه الثيران تجره بصعوبة، بينما الجنود ينتشرون في كل مكان.

جذبت رودينا أخاها من يده في اللحظات الأخيرة قبل أن يدوسه فرس ضخم كان يمر بجوارهما يحث الجنود على الإسراع، للانتهاء من نقل السفن قبل قدوم الفجر، وقفوا يلتقطان أنفاسهما أسفل إحدى الأشجار، ثم جلسا متجاورين يراقبان المشهد من بعيد في ذلك المكان الآمن عن حركة الجنود والخيول ومسار السفن التي تجري على قضبان تجرها الثيران، من خلفهما

سمعا أصواتًا وكأنها قريبة، أصواتًا وكأنهما سمعاها من قبل لأطفال مثلهم لكنها خافتة لدرجة أنهما لم يستطيعا تحديد مكانها، أو ماذا يقولون، أو حتى أين هم؟ أشارت رودي لأخيها أن يصمت تمامًا لتحاول أن تسترق السمع لتفهم ما يقال أو من أين يأتي الصوت؟

وكان بالفعل الصوت يقترب، وكلما اقترب اتضحت معالمه أكثر، لتنشق الأشجار الكثيفة عن مفاجأة لم تكن في الحسبان،

صرخ يوسف من فرط المفاجأة وقفز من مكانه ليحتضن ابن خالته «زياد»، بينما كانت رودي هي الأخرى تلقي بنفسها في حضن «دارين» ابنة خالتها وألقت عليهما عشرات الأسئلة في وقت واحد، بينما لم يزا في حالة من الدهشة والعجب

كيف هذا يا زياد؟ كيف يا دارين؟ ما الذي أتى بكما هنا؟ هل كنتما هنا من البداية؟ مع من جئتما؟ هل تعرفان أين نحن؟ هل تعرفان مع من كنا؟ هل يعرف والدانا أننا هنا؟ كيف وصلتما إلى هذا المكان؟

ومع أن زياداً كان في نفس الدهشة إلا أنه ظل متماسكا يحاول إيجاد جواب على تساؤلات رودي، لكنه لم يكن يستطيع ذلك من سرعتها في إلقاء الأسئلة.

حاول زياد تهديتها، لكن فرحة يوسف رغم تعجبه كانت كبيرة خاصة بدارين المقربة إليه وهي التي طالما صبرت على تساؤلاته وتحملته في اللعب.

تنحي الأربعة جانبًا وجلسوا في حلقة متقاربين ليبدأ زياد في الحكى عما حدث ببساطة، وهو أنه بمجرد عودته من منزل خالته ليلة أمس بعد لقاء الأسرتين واتفاقهما على البدء في التحضير للسفر وإنهاء إجراءاته، انفرد زياد بأخته في مكتبة البيت ليجثا عن كل ما يخص تركيا في

التاريخ والجغرافيا والظروف الحياتية لشعبها وأكثر الأماكن التاريخية شهرة والأماكن السياحية والمطاعم والفنادق وكل ما يتعلق بها، وفجأة وجد نفسه يمسك بيد أخته على ما يشبه البساط السحري؛ ليلقي بهما فوق سفينة من تلك السفن المنتشرة على خليج البسفور الآن، أو بالأحرى تلك السفن التي تجرها الثيران؛ لتنتقل بها للناحية الأخرى داخل الخليج لتكون في مواجهة حصون القسطنطينية.

هنا استوقفته رودى.

انتظري يا زياد، حتى الآن هذا ما حدث معنا أنا ويوسف، فما هذا الذي تقوله؟ لماذا يقومون بنقل السفن؟ أليس من وظيفة السفن أن تحمل الأشياء وتشق الماء؟ لماذا يضطرون لتسييرها على الشاطئ وفي تلك الغابة المظلمة؟ لماذا لا تدخل للخليج مباشرة لتواجه تلك الحصون؟

ألا تظنين أن هناك عشرات من المحاولات تمت يا رودى لاختراق تلك المنطقة وعبورها، ومن ثم فتح القسطنطينية تلك البقعة المهمة في العالم؟ لقد حاول المسلمون على مر تاريخهم من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان فتحها، لكنها كانت عصية على الفتح، لقد كانت تمثل أهم المدن للدولة الصليبية، لذلك كان تحصينها على أعلى مستوى، أما مدخل الخليج فقد كان به سلسلة ضخمة، تمنع عبور أي سفينة منه أو إليه، أي أنه من المستحيل دخول السفن عن طريق البحر.

الآن فهمت يا زياد؟ ولكن؟ لم كل هذا العناء في فتح مدينة واحدة؟ بينما المسلمون يملكون تقريباً معظم قارة آسيا.

ألم أقل لك يا رودى أن تلك المدينة لها مكانة غير عادية، فموقعها فريد حتى أنه قد قيل فيها «لو كانت الدنيا مملكة واحدة، لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»، ليس هذا فقط، بل لقد بشر بفتحها

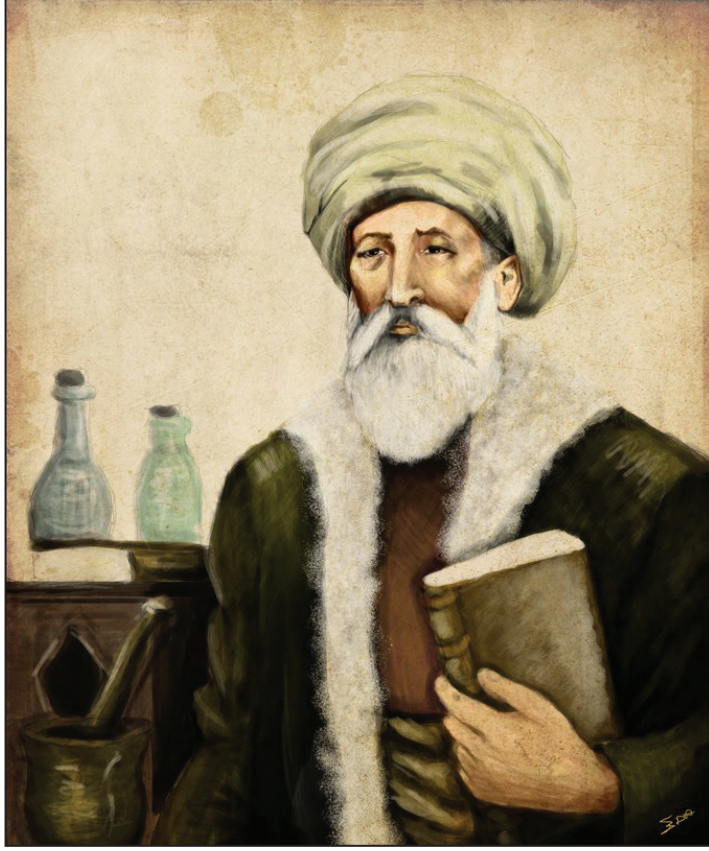
النبي ﷺ حين سأله أيهما تفتح أولاً : رومية أم القسطنطينية؟ فقال
ﷺ القسطنطينية، وقال عنها أيضاً « لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ،
فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».



اضطر الأربعة يتحدثون بصوت مرتفع حتى يسمع أحدهم الآخر وسط
الجلبة الحادثة من تدافع الجنود الذين يتضاعف عددهم مع كل ساعة تمر،
وإذا بأحد الرجال يقبل عليهم في ابتسامة عريضة منادياً كلاً منهم باسمه
وكأنه يعرفهم جيداً منذ زمن بعيد، وحين اقترب منهم ألقى عليهم السلام
وجلس، وقبل أن يردوا التحية ليشكلوا حلقة حول الشيخ الكبير لينظر كل
منهم إلى الآخر متسائلاً ماذا يريد منهم؟ ومن أين يعرفهم وهم يلتقونه
للمرة الأولى في حياتهم؟



الشيخ الحكيم وحقيقة البساط السحري



كانت نظرة الشيخ تأسر نظر الأطفال الأربعة إليه بشدة، لحيته البيضاء الكثيفة، وعمامته الكبيرة ولباسه الأسود المهدم وسكونه ووقاره وصوته الهادئ، والمصحف الذي لا يفارق يده، كل هذا يجعل للشيخ مهابة لا تعطي فرصة لمن معه أن يغيب عنه لحظة في شأن آخر، بل له القدرة على شد انتباه الحاضرين بقوة، وإجبارهم على الاستماع إليه حبًا واحترامًا وتقديرًا.

تحلقوا حول الشيخ ينصتون لما قد يقوله ليبدأهم مبتسمًا :

بالطبع لا تعرفونني، وتتعجبون أنني أعرفكم، بل وربما تتعجبون أكثر حين تعرفون أنني من أرسلت في طلبكم لما أعرفه عنكم من تميز ديني وأخلاقي، واهتمامكم بشأن المسلمين، وأحييكم على ذلك خاصة أنكم تنفذون قول جدكم رسول الله ﷺ «من لم يهتم بأمر المسلمين، فليس منهم»، أجاب الأربعة ورددوا في صوت واحد : -عليه الصلاة والسلام-.

في صوت خافت وبعينين تنظران في الأرض استأذن زياد في طرح سؤال على الشيخ فأذن له :

لماذا نحن يا سيدي الشيخ؟ لماذا اخترتنا نحن لنسافر إليكم؟

أليس كان من الواجب يا زياد أن تسأل عن المهمة أولاً؟

نعم يا سيدي، كنت سأسأل أيضا هذا السؤال.

سأجيبك يا زياد، فهلا صليتم على حبيبكم محمد ﷺ!

عليه الصلاة والسلام.

أنت يا زياد في الصف الثاني الإعدادي في بلادكم مصر، قل لي : ماذا تحفظ من كتاب الله؟

أحفظ الثلثين يا شيخنا، وبإذن الله خلال عامين سأختم القرآن حفظًا كما وعدت أبي ومعلمي بالمسجد.

أحسن يا زياد، فقل لي كم كتابًا قرأت؟

لست أذكر العدد يا سيدي، هي كتب كثيرة لكنني لست أذكر عددها، فكل ما أعرفه أنني بمجرد معرفتي بالقراءة والكتابة كانت أمي تقتني لي الكتب وتقرأها لي، ثم أقوم أنا بقراءتها مرة أخرى كي أشبع رغبتني وحيي في القراءة.

وفي أي مجال تقرأ أيها الفتى؟

في كل شيء، القصص، وكتب الدين، والشخصيات التاريخية

وبالطبع قرأت عن الفتوحات الإسلامية، أليس كذلك؟

بالطبع يا شيخنا، وكل من حولي يشجعونني على ذلك في البيت والمدرسة.

نعم يا شيخنا كان هذا هو صوت رودينا ليس هذا فقط، بل إن زيادًا يشرح لنا أي كتاب قرأه، رغم أننا لم ندرس الخريطة في المدرسة بعد، استطعت أن أقرأ خريطة تركيا، وأحدد من خلالها المواقع.

انتظري يا رودينا، سيأتي دورك وسألقي عليك الأسئلة أنت أيضًا، دعيني أكمل مع زياد.

لتعلم يا زياد أن التاريخ الذي تقرأه بسهولة ويسر في سطور معدودة لم يكن تاريخًا عاديًا، مكتوبًا بالحرف العادي يا بني، إنما كان تاريخًا مكتوبًا بدماء الأبطال، جنود خرجوا في سبيل الله، تركوا أموالهم، وعائلاتهم، وديارهم، وأوطانهم، ليس رغبة في مغنم، وليس رغبة في دنيا يصيبونها، إنما خرجوا ليحرروا الناس، من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، أتذكر يا زياد صحابيًّا جليلًا اسمه «ربيعي بن عامر»؟

نعم يا سيدي أذكره، إنه كان في جيش المسلمين الذي فتح بلاد الفرس، والتقي «رستم» قائد جيشهم في خيمته المذهبة، فربط خطام فرسه في كرسي مذهب، وكان يتكئ على سيفه فيفسد السجاد الفخم، والذي حسب رستم أنه سينبهر بذلك السجاد ومظاهر الغني الفاحش، لكن الصحابي ربيعًا بن عامر لم ينتبه لأي من ذلك، ووقف أمام رستم عزيزًا قويًا يدعوهُ للإسلام وهو يسأله: ما الذي أتى بكم من دياركم؟ فقال له ربيع «جئنا لنحرر الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا، لسعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام.

أحسننت يا زياد، أرايت؟ لهذا اخترتك يا زياد، لعلمك بالتاريخ وشغفك به، لحبك لأجدادك وسيرك على طريقهم، القرآن يا بني هو سبيل الرفعة والعزة والكرامة والحرية، والسيف يحمي القرآن، ويحمي العدالة، ويحمي حرية الناس، وإلا لو صارت كل تلك الأمور في يد الضعفاء حتى لو كانوا أصحاب حق، فسيكونون لعبة في يد الظالمين، فيقضون على أهل الحق، ثم يقضون على الحق ذاته، أنت تحفظ القرآن، وتقرأ وتتعلم، فقد حزت نصف الطريق، أما النصف الثاني فهو في القوة والتدريب والعمل والسعي والحركة، لذلك أنت هنا يا ولدي، إن بلادك يا زياد في حاجة إليك.

تقصد مصر يا شيخنا؟

لا يا زياد، مصر هي قلب بلاد المسلمين، لكنها ليست كلها، إن بلادك التي تريد جهدك وعلمك وقوتك وأخلاقك هي بلاد المسلمين جميعها، هي كل شبر فيها، إن ملكك وإرثك يا بني من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، هي بلاد الخلافة التي كان يصدق فيها الأذان على مدار الساعة فلا يتوقف ذكر الله في الأرض، هي حيث تمطر كل سحابة في الأرض المترامية، إن بلادك يا ولدي تريدك أن تتعلم ولهذا أنت هنا لتري عظمة تراثك، وكيف أن التاريخ الذي تقرأه لم يكن سهلاً بناؤه وكتابته، وإنما كان أرواحاً وأحلاماً وأمنيات ودماءً بذلت في سبيل الله، فانتبه جيداً لكل ما يدور حولك حتى تعود، فهل تعدني يا زياد؟

أعدك يا شيخنا ومعلمنا، أعدك بأن أبذل جهدي وأنتبه لكل صغيرة وكبيرة.

أما أنتن يا دارين ورودينا فلا تقل واحدة منكما عن زياد في فهمه وحبه للقراءة وتحصيل العلم والاهتمام بأمور الأمة رغم صغر سنكما.

أنتما يا بنيتاي نموذج رائع لبنات المسلمين في هذا الزمن الصعب، فالفتاة كالولد في الدين الإسلامي، لها ما له وعليها ما عليه، في وقت الشدة

تجدها تنهض وتناضل وتحمل قضية بلادها، تتعلم وتنمي ذاتها رغبة منها في نهضة بلادها ورفع شأن دينها، لقد علمت يا دارين أن والدتك اختارت لك هذا الاسم تيمناً بالشهيدة الفلسطينية «دارين أبو عيشة»، تلك المرأة التي تركت أبناءها وزوجها وبيتها وفجرت نفسها فيمن اغتصبوا أرضها، وانتهكوا مقدسات المسلمين، كانت الحياة في فلسطين عندها غالية، لكن الموت في سبيلها أغلى، فلا معنى للحياة دون حرية يا دارين، لا معنى لوطن منتهك، لا تطيب الحياة وأرضك يطؤها المغتصبون، لا هناء عليها إلا بتطهيرها منهم، وتحريرها حتى آخر شبر فيها، إياك يا ابنتي تستمعين لدعاواهم بأنهم يريدون السلام، أو التعايش، إنهم لا يعرفون سوي الخيانة، والغدر، والخداع، إنهم لا يرضون إلا بهلاك المسلمين واغتصاب مقدساتهم، إنهم يعون جيداً يا ابنتي أن المسلم إذا انتبه، وفهم، وتعلم، فلن يكون لهم في بلادنا مقام، ولن تطيب لهم الأرض، ولن يستطيعوا العيش فيها يوماً واحداً، ليس معنى هذا يا أحبابي أننا قتلة، أو إرهابيون كما يطيب لهم أن يطلقوا علينا، لا، بل نحن أصحاب حق، نحب الخير لكل العالم، ونسعى للسلام، ورسالتنا للناس الخير، إنما أرضنا، ومقدساتنا، وحقوقنا، وحریاتنا، دونها جميعاً الموت، لا حياة لنا إلا أحراراً أعزة، أفهمت يا دارين؟ فهمت يا رودينا؟

نعم يا جدي فهمنا.

وأنت يا يوسف، رغم أنك لم تتعلم القراءة جيداً بعد، إلا أنني أري فيك نباهة المسلم الصغير الحريص علي دينه رغم ضآلة معلوماته، حفاظك على الصلوات في وقتها، وتقليد الكبار في القراءة والبحث رغم عدم فهمك كل شيء بعد ينبئ بفتي له شأن كبير في حمل قضايا بلاده، ولذلك كنت ممن اخترتهم لحضور تلك المهمة الكبيرة، أذكرون ما هي؟

ما هي يا جدي؟

فتح تلك البلاد العظيمة، والتي سوف يكون لها شأن كبير في نشر

الإسلام وتقوية المسلمين، ستشاركون في الفتح الأكبر الذي بشر به النبي -صلي الله عليه وسلم-، لها أنتم هنا، ولذلك جئت بكم على البساط السحري لتشهدوا ما قرأتم عنه وبحثتم بأنفسكم في تلك البلاد التي ستزورونها مع آبائكم بعد أيام، لتعلموا أن زيارتكم لا تتوقف على الحدايق والمتنزهات والأنهار والجبال والمناظر الطبيعية الرائعة، وإنما لتعلموا أن كل شبر ستسيرون عليه في شوارعها، كان عليه دم من دماء هؤلاء الجنود الأطهار، وأن الإسلام يا أحبابي يستحق، أن نعيش به ونموت في سبيله.

صمت الشيخ قليلاً لينتبه على صوت مرتفع، مئات من الرجال الأشداء مع المئات من الثيران، يجرون خلفهم مدفعاً ضخماً، يسحبونه داخل الغابة كما سحبوا من قبل السفن الضخمة، كان مدفعاً مختلفاً، لم يشبه أي مدفع رأوه من قبل، أشار إليهم الشيخ قائلاً: هذا هو المدفع السلطاني والمعد خصيصاً لتلك الحرب، يزن حوالي سبعمئة طن، وقد صنعه المهندس المجري «أوربان» الذي فر من ظلم الإمبراطور قسطنطين حاكم الدولة البيزنطية وساعده في بنائه المهندسون المسلمون، ليكون المدفع الأول من نوعه، وها هو تلميذي السلطان «محمد الثاني» يبدأ به المعركة الكبرى.



في شوارع القسطنطينية

ابتعد الشيخ وهو يحث الجنود بصوت مرتفع علي الإسراع في تحركهم، يذكرهم بالنصر والجنة -ورضي الله عنهم -، وقد لاح الفجر في الأفق، وقف الشيخ على هضبة بين الأشجار ليؤذن للفجر داعيًا الجنود للاصطفاف للصلاة، استعد الأطفال للصلاة خلف الشيخ الكبير بالوضوء من جدول صغير تهافت عليه الكثير من الجنود بينما اكتفي الكثيرون منهم بالتميم لقلة الماء بالجدول والتزاحم عليه.

اصطف نصف الجنود خلف الشيخ بينما وقف النصف الآخر يحمونهم في دائرة تحيط بالمصلين، بعد أدائهم ركعتي الفجر، أقام أحدهم الصلاة واصطفوا ليصلوا الصبح، دعا الشيخ في دعاء القنوت بالنصر للمسلمين وبالثبات للجنود وبالتوفيق للسلطان الشاب الذي خرج بأكثر جنود بلاده لفتح تلك البلاد العنيدة.

أمن الجميع على دعاء الشيخ ليختم صلاته، وحين الانتهاء استبدلت الأدوار، فصلي من لم يصل، ومن أدّى صلاته حمل السلاح ووقف ليحمي المصلين في مشهد مهيب تنخلع له القلوب، في دقائق عادت الصفوف للعمل كخلية النحل،

وبسرعة أكبر كي يدركوا الوصول بالسفن لمنطقة القرن الذهبي قبل طلوع الشمس، لتبدأ المعركة الحقيقية تلاحم الأطفال في صفوف الجنود الذين يحملون الأسلحة الخفيفة مثل النبال والأسهم وحملوا بعضها، سار زياد بجوار أحد الجنود ليسأله

حدثني عن الشيخ أيها الجندي.

أي شيخ أيها الصغير؟

الشيخ الذي صلى بنا الصبح، وها هو ينادي من بعيد في الجنود ليسرعوا.
إنه الشيخ آق شمس الدين، ألا تعرفه؟
أعرفه، لكنني لا أعرف إلا اسمه.

إنه معلم ومربي السلطان، لم يكن أحد له كلمة على السلطان محمد الثاني إلا الشيخ، وما كان أحد يستطيع أن يضربه ويؤذبه في صغره إلا هو، ليس هذا فقط، بل هو الذي أقنع السلطان بأنه الأمير المقصود في الحديث النبوي الشريف «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش جيشها»، بمعنى أن للشيخ الفضل الأول بعد الله في هذا الفتح إن أتمه الله علينا.

تقصد أنه كان يحفظه القرآن في صغره؟

ابتسم الجندي قائلاً، لقد علمه القرآن والسنة والفقه وكافة العلوم الإسلامية في زماننا، كما علمه التاريخ وعلم الفلك والجغرافيا والرياضيات.



استمر زياد في الحديث مع الجندي بالقرب من أخته وأبناء خالته وعينه لا تفارقهم باعتباره أخاهم الأكبر والمسئول عنهم، كان نور النهار قد ملأ المكان وأوشكت الشمس علي الشروق وقد وصل الجيش إلى منطقة القرن الذهبي بعد أن تجاوزوا الغابة المظلمة الكثيفة وبدأ الجنود في سحب السفن إلى البحر بالخليج في مواجهة الحصون.

من بعيد كانت أسوار القسطنطينية تبدو شاهقة الارتفاع، منيعة الحصون، كانت المدينة محاطة من ثلاث جهات بالماء، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي المغلق بالسلسلة والتي استطاع جيش المسلمين تجاوزها بسحب السفن عبر تلك الغابة على اليابسة، وكان يحيط بالمدينة سور مزدوج ملئ بالجنود المترسين بالسلاح والنبال يمنعون أي محاولة للاقتراب، كان السلطان محمد الفاتح في خيمة وسط جيشه يضع بها الخطط ويتابع محاولات الاقتحام، ويبحث عن ثغرات، ونشر الجيش الإسلامي ليحكم الحصار على المدينة.

كان يحلو لزياد ورودي التنقل بين خيام الجند تارة ويقتربون تارة أخرى من خيمة السلطان الذي لم يروه وجها لوجه منذ قدومهم، ليقضوا معظم الوقت بجوار خيمة الشيخ آق شمس الدين، استطاع زياد أن يوثق علاقته بالجنود، وبإيحاء من الشيخ شمس الدين قاموا بتدريبه على فنون الدفاع عن النفس واستخدام النبال والحركة بخفة بين الجنود ليساعدهم في حمل السلاح وتبديل السيوف والكنانات التي تحمل السهام.

مرت أيام طويلة على الحصار تخطت الخمسين يوماً، بينما الحالة المعنوية للجنود تدهورت لطول مدة الحصار، وما يتم هدمه بالهجوم النهاري، يقوم جيش القسطنطينية ببنائه ليلاً وكأن شيئاً لم يكن، فيحدث تدمير بين الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من مائتي وخمسين ألف جندي.

كان عدد الشهداء يوميًا في تزايد جراء هجوم جنود قسطنطين من فوق القلاع المنتشرة على السور المحيط بالمدينة، انتشر الغضب بين الجنود، وذهب الأمر ببعضهم لملاقاة السلطان غاضبًا يخبره أن الشيخ شمس الدين غرر بهم وأنهم لن يستطيعوا فتح المدينة، وأنهم جازفوا بجيش المسلمين ويجب عليهم العودة لبلادهم لإنقاذ البقية الباقية منهم،

كان السلطان محمد الفاتح غاضبًا، غير أن هيبة الشيخ منعتة من مواجهته بهذا الغضب، فأرسل أحد الجنود يطلب من الشيخ الحضور لخيمة السلطان، وبالفعل ذهب الجندي للخيمة ليمنعه حراس الشيخ من الدخول عليه، وقالوا له أبلغ السلطان أن الشيخ يرفض لقاء أحد ولو كان السلطان نفسه، وأمر ألا يدخل عليه أحد الخيمة، عاد الجندي بتلك الأخبار إلى السلطان وقد سمع زياد الحوار فانداهش، وتوقع أن يطيح السلطان بالشيخ الذي يرفض لقاءه، كيف بواحد من الرعية أن يرفض لقاء السلطان، ويأمر ألا يزججه أحد في خيمته حتى لو كان الشيخ الذي علمه؟ انتظر زياد أن يسمع خبر مقتل الشيخ هذا اليوم نظرًا لهذا العصيان الذي أبداه الشيخ والحرص الذي سببه للسلطان أمام جنوده.



بل قل يا يوسف، معقول أن يكون هذا الشاب الصغير هو سلطان المسلمين، وهو قائد هذا الجيش الكبير؟

تخيل يا زياد؟ تخيل أن يكون هذا هو السلطان؟

صمت الأربعة في دهشة كبيرة بينما كانت عيونهم تتابع السلطان الذي يتخطى الخيام ليقف على باب خيمة شيخه، يقف أمامها يستأذن الجنود في الدخول فلا يأذنوا له، لشدة غضبه ورغبته في ملاقاته الشيخ فقاوم الجنود وشق الخيمة بسيفه بينما الجميع يكتم أنفاسه خوفاً على الشيخ من غضب السلطان، لكن الفاتح يقف عند الخيمة ويطأطئ رأسه وتنحدر دموعه من عينه وهو ينظر للشيخ الذي وجده ساجداً باكياً يناجي ربه، وقف حتى انتهى الشيخ من صلاته وينظر إليه قائلاً - امض الآن فما هي إلا ليلة وتفتح المدينة.

انصرف السلطان وهو على يقين من الفتح لتظهر له فكرة جديدة يستطيع من خلالها إنهاء المعركة اليوم، فقد نادي بالنجارين ليقوموا ببناء خشبي مكون من ثلاثة طوابق، في كل طابق عدد من الجنود يكونون في مستوي ارتفاع الأسوار، ويفاجئون جنود الحراسة بالمدينة ويقضون عليهم، وبالفعل تم الأمر ليصنعوا مزيداً من تلك الأبنية الخشبية المتحركة، وهنا يتم استخدام المدفع السلطاني الذي تبلغ قذيفته مسافة ميل، ويصل وزنها لسبعين طناً، فيكبر المسلمون بإحداث تشققات كثيرة في السور فيدخل آلاف الجنود منها مكبرين، ويحدث الاشتباك المباشر مع الكفار وينهزم جيش الصليبيين في مواجهة الفاتحين، وتنكسر المدينة أمام الزحف الإسلامي الكبير.

بين الجنود يدخل الأطفال الأربعة مكبرين يجوبون شوارع المدينة، يرون بأعينهم هروب الجنود واختباء أهلها في البيوت والأقبية والكنائس، بينما السلطان يدخلها بجوار شيخه شاكرين لله نعماءه ليحدث ما ليس في الحسابان.

آيا صوفيا وأخلاق الفاتح المسلم



توجه السلطان والشيخ مع الجنود تجاه كنيسة آيا صوفيا، وهي الكنيسة الأكبر في المدينة، كان بها الآلاف من البشر الخائفين يحتمون بجدرانها مع القساوسة والرهبان، كان الأطفال في مقدمة الجيش بجوار مستشاري السلطان وقادة جيشه يشاهدون كل شيء عن قرب، عندما اقترب الجيش من الكنيسة لاحظ الأطفال أن أبوابها تفتح، فتوجه السلطان بنفسه إلى القساوسة يطلب منهم تهدئة الناس وتطمينهم بأنه السلطان لن يؤذي أحداً منهم، وأنهم في بلادهم أحرار، كان العديد من الرهبان قد اختبؤوا في سراديب الكنيسة، ولما رأوا ما حدث وأن السلطان لم ينتقم من أحد منهم أو يؤاخذه على هويته أو يطلب منه تغيير دينه فتحو السراديب وخرجوا لملاقاة جيش الفاتحين، بل وكثير منهم حين رأي ذلك التعامل بالرحمة والحب وتلك الأخلاق أعلنوا إسلامهم، كما أعلن معظم أهل المدينة إسلامهم.



علي الفور قام المسلمون بإخفاء الصور على الجدران، تلك التي يدعون أنها صور المسيح والسيدة مريم، كما كسروا الصلبان وأزالوها بعد أن أمر السلطان بتحويل الكنيسة لمسجد ما يزال قائماً حتى اليوم، وهو مسجد «آيا صوفيا».

فتح السلطان باب فداء الأسري بالمال بعد أمره الجنود بحسن معاملتهم، ومن العجيب أن يدفع من ماله الخاص فداء الكثيرين منهم خاصة أمراء اليونان.

كان الأطفال ينظرون لكل هذا مندهشين وينظر أحدهم إلى الآخر، أي رحمة تلك التي يتعامل بها سلطان شاب فاتح مع أهل المدينة التي كانت تحاربه منذ بضع ساعات فقط.

كانوا منبهرين بالفاتح خاصة زياد الذي كان يحاول تقليده في حركاته وطريقة كلامه وطريقة إمساكه بالسيف وتوزيعه المهام

حتى حديثه عنه مع الجنود ومع إخوته، يصفه كما يصف أباه أو صديقه الذي يحبه حباً جماً، أو أستاذه ومعلمه المقرب

أرأيت يا دارين؟ ألم أقل لك إن السلطان محمد الفاتح شخصية لم تتكرر في التاريخ؟

كيف يا زياد؟ ألم نقرأ معاً أن تاريخ المسلمين ملئ بنماذج كثيرة مثل محمد الفاتح؟ ألم تحك لي بنفسك قصة أسامة بن زيد القائد الصغير الذي قاد جيشاً ضد الروم وكان في هذا الجيش كبار الصحابة؟

نعم يا دارين، لكن محمداً الفاتح مختلف، أسامة بن زيد تربى على يد النبي ﷺ، أما محمد الفاتح فعاش في زمن آخر، هذا غير صفاته المتميزة.

وكل الفاتحين يا زياد أخلاقهم متميزة، تلك في الأصل هي أخلاق المسلمين جميعاً حين يكونون قادة أو فاتحين أو حتى مجرد جنود، كلهم يتميزون بالحزم، والشجاعة.

نعم يا رودي، جميعهم ذوو ذكاء غير عادي، يتميزون بالعدل والرحمة والإخلاص.

ولا تنس صفة هامة أخرى يا زياد، إنهم كلهم يتعلمون اللغة والتاريخ والفلسفة وفنون القتال والفلك والجغرافيا.

صدقت يا دارين هم بالفعل كذلك.

حضر الجميع خطبة الجمعة الأولى في مسجد «آيا صوفيا» والتي ألقاها الشيخ شمس الدين، والذي كان مشغولاً في الأيام التالية بالبحث عن قبر الصحابي «أبو أيوب الأنصاري» الذي دفن من قبل بالقرب من المدينة في إحدى المحاولات السابقة في فتح المدينة، وهو موجود للآن يزوره من يريد.

تجول الأطفال بصحبة الجنود بمعظم شوارع المدينة لمراقبة الأسواق وضمان تحقيق الأمان للناس الذين كانوا يدخلون في دين الله أفواجا لما

لقوه من حب ورحمة في معاملة المسلمين لهم، ليأتي نداء من بعيد من أحد الجنود.

أيها الأطفال، عفواً، أيها الشباب، إن السلطان يريدكم هو والشيخ في المسجد الآن، فهيا إلى هناك.

أسرعوا جميعاً بصحبة الجندي للقاء السلطان محمد الفاتح ولقاء الشيخ العظيم شمس الدين.

حين وصلوا استقبلهم السلطان بترحاب شديد، كذلك الشيخ الذي مسح على رؤوسهم مبتسماً وأجلسهم بجواره في مواجهة السلطان.

بدأ الشيخ شمس الدين بالكلام وهو يوزع نظراته بين الأربعة قائلاً لهم :

قل لي يا زياد؟ ماذا تعلمت من تلك التجربة التي مررتم بها؟

اعتدل زياد في جلسته وهو يقول، لقد تعلمت الكثير يا سيدي، أولاً: تعلمت أن المسلم يجب أن يكون قوياً وليس ضعيفاً.

ثانياً: أن الجيوش والقوة والسلاح لن تنفع صاحبها دون الصلاة والصيام والدعاء وقيام الليل.

ثالثاً: تعلمت أن الناس حين يعرفون أخلاق المسلمين الحقيقية، سوف يقبلون على الإسلام بأعداد كثيرة، بدليل أن أهل القسطنطينية بما فيهم الرهبان والقساوسة الذين كانوا يختبئون في كنيسة آيا صوفيا خرجوا وأعلن معظمهم إسلامه حين علم بتعامل السلطان محمد الفاتح مع أهل المدينة، وكيف عفا عنهم وأكرمهم.

ابتسم الشيخ وهلل قائلاً : أحسنت يا زياد.

ثم توجه إلى دارين ليسألها نفس السؤال فأجابت :

تعلمت يا جدي أن العالم يحتاج للمسلمين، وأن المسلمين يحتاجون

إلى دينهم وإسلامهم حتى يستطيعوا أن يكونوا كالسلطان محمد الفاتح وجيشه، وتعلمت أيضاً أن العلم جزءٌ من الدين، ولولا العلم الذي حثنا عليه القرآن والكتب التي قرأها وتعلمها السلطان ما استطاع أن يكون من الفاتحين، وما قدر علي أن يقوي جيشه ليكون جديراً بالفتح.

أرأيت أيها السلطان؟ أرأيت أنني أحسنت الاختيار حين طلبت منك أن يكون هؤلاء الأبطال الصغار ضمن جيشك في الفتح؛ ليلبغوا رسالتهم إلى أمتهم في عصرهم؟ إنهم أطفال نابهون أذكىء، ولسوف يكون لهم في بلادهم شأن، ومهمتك أيها السلطان لن تنتهي هنا بفتح القسطنطينية، بل إن هذه الأجيال سوف تكمل رسالتك في عصر لن تراه، ولن تتخيل من ضعف المسلمين فيه أنه يأتي، لكنها كبوة سرعان ما ستزول، وهذا هو الجيل الذي سيفهم ويكمل ما بدأته.

صدق السلطان علي كلام شيخه شمس الدين، ووفقا كي يودعا الأطفال ليعودوا إلى بلادهم بتلك الدروس القوية، والتي سينطلقون منها لإعادة البناء الحضاري الضخم الذي وضعه السلطان محمد الفاتح فيما يعرف بتركيا اليوم.

طار بساط الريح بالمغامرين الأربعة وهم يلوحون للسلطان والشيخ وجيش المسلمين في القسطنطينية، وتبتعد المدينة عن الأعين لتظهر معالم الخريطة أكثر، يغمض الجميع عينه حين يسرع بهم البساط ليلقي كل منهم في غرفته تماماً مثلما أخذهم دون أن يدري أحد منهم أن الآخر كان مسافراً في نفس الاتجاه حتى التقوا في تلك الليلة بالغابة، انتبهت رودي أن الوقت كان ما يزال ليلاً، وأن البيت هادئ تماماً وكأن شيئاً لم يكن، كان يوسف علي وشك أن يصرخ ويهرول تجاه غرفة والديه ليحكي لهما، لكن أخته جذبته من يده وأشارت إليه أن يصمت تماماً، وأن يتوجه كل منهم إلى غرفته دون أن يفصح عن أي مما حدث، وكأن شيئاً لم يكن

حتى يعرفا ما الذي صار، وكم غابا عن البيت، ورد فعل والديهما حين يريانهما.

مع نداء الفجر كانت الأم تطرق الباب علي الجميع كي يستيقظ للصلاة، ومع صعوبة الاستيقاظ إلا أن الجميع كان يستعد للصلاة بالوضوء، كان الأمر بالبيت رتيباً وكأنهما لم يغيبا، كانت رودي تختطف النظرات مع أخيها وهما يبتسمان، فوالدهما لم يلاحظا غيابهما تلك المدة، ويبدو أنها كانت ليلة واحدة تلك التي قضياها بالخارج في تلك المغامرة، ذهب يوسف للصلاة مع والده بالمسجد، بينما اصطفت رودي بجوار والدتها لتصلي معها جماعة، بعد الصلاة أصابها الشك في نفسها، هل كانت تحلم؟ هل ما مرت به تلك الليلة، أو تلك المدة الطويلة مجرد حلم، بينما هي تفكر إذا برسالة علي هاتفها من زياد كان نصها : لا تخبروا أحداً بما حدث، فإنهم لا يعلمون شيئاً، حتى لا يقلقوا علينا.

ابتسمت رودي واطمأنت إلى أنها كانت مغامرة حقيقية، وأن رحلتها المرتقبة في بلاد السلطان، لن تكون هي الرحلة الأولى..





الفهرس

٤.....	زياد المغامر الواعد.....
٧.....	رودينا الذكية.....
١٠.....	يوسف الفنان الصغير.....
١٢.....	المفاجأة.....
١٥.....	رحلة في ظلام الليل.....
٢٤.....	في عرض البحر.....
٢٨.....	مكتبة في جوف السفينة.....
٣٣.....	مغامرة داخل الغابة المظلمة.....
٣٩.....	المفاجأة الكبرى.....
٤٣.....	الشيخ الحكيم وحقيقة البساط السحري.....
٤٩.....	في شوارع القسطنطينية.....
٥٤.....	آيا صوفيا وأخلاق الفاتح المسلم.....